سرعة استجابة الصحابة لأمر الله ورسوله

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله الذي خلقنا وهدانا، ورزقنا واجتبانا، ومن كل ما سألناه منحنا وأعطانا، فضلاً منه ونعمة وامتنانًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أنزل علينا قرآنًا، هدى للناس وبيانًا، وحجة وفرقانًا، وأشهد أنَّ نبينا محمدًا عبده ورسوله، أعظم الأمة إيمانًا، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، الذين كانوا بنعمة الله إخوانًا، وعلى الخير أعوانًا، وعلى من تبعهم بإحسان، واقتفى أثرهم بإيمان، أما بعدُ:

فمن المعلوم الثابت أنَّ جيل الصحابة رضوان الله عليهم كان جيلاً فريدًا، لم يشهد الزمان مثله، لأنه جيل تخرج من مدرسة الدعوة الإسلامية، التي كان يقودها المربي الأسوة، والنبي الخاتم، صلوات الله وسلامه عليه، ولقد شهد الله تعالى لهم بهذا، فقال تعالى: «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » [آل عمران: ١١٠]، وهذا الخطاب وإن كان عامًا للأمة كلها، إلا أنَّ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم هم أحق الناس به، فإنه لم يبلغ إيمانهم أحد، ولم يقم في مقام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقامهم أحد، ثم إنهم هم أول من خوطب بهذه الآية وعليهم أنزلت، وقد مدحهم الله تعالى صراحة في أكثر من آية:

قال الله تعالى:«وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » [سورة التوبة: ١٠٠]، وقال تعالى: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » [الحشر: ٨- ٩].

ونحن اليوم ننظر ونتساءل: أليس في الإمكان أن يعود المسلمون اليوم عودة حميدة إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، ونرى جيلاً كريمًا كالجيل الأول؟ هل يمكن أن تتكرر الصورة المشرقة المضيئة التي أراها السلف الصالح للدنيا كلها؟ أيمكن أن تعود سيرة المسلمين الأولى بجمالها وبهائها؟ والجواب: أما من ناحية الإمكان: فالإمكان حاصل، من الممكن، بل من اليسير - بإذن الله - وذلك إذا تأسينا بهم في سرعة الاستجابة لأمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فقد كان الواحد منهم - رضوان الله عليهم - يتلقى الأمر من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، كما يتلقى الجندي الأمر في الميدان ليعمل به فور تلقيه.

وإليك أخي القارئ صورًا مشرقة في المسارعة والاستجابة لهذا الجيل العظيم:

أولاً: مسارعة قوم من الأنصار إلى تولية وجوههم نحو الكعبة وهم ركوع:

روى البخاري عن البراء - رضي الله عنه قال: «لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، وكان يحبّ أن يُوجَّه إلى الكعبة، فأنزل الله تعالى: « قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا» [البقرة: ١٤٤]. فَوُجِّه نحو الكعبة، وصلى معه رجل العصر، ثُمَّ خرج فمرّ على قوم من الأنصار، فقال لهم: «إنه صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم وإنه قد وُجِّه إلى الكعبة، فانحرفوا وهم ركوع في صلاة العصر». [صحيح البخاري: ٧٢٥٢، ٢٣٢/١٣].

ما أسرعهم تأسيًا بالرسول صلى الله عليه وسلم!! وقد سمعوا خبرًا عنه صلى الله عليه وسلم فلم يترددوا في التمسك به، بل لم ينتظروا رفع رؤوسهم من الركوع، وبادروا بالتوجه إلى حيث توجّه الحبيب الكريم صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة المشرفة، وهم ركوع.

ثانيًا: مبادرة الصحابة رضي الله عنهم إلى تنفيذ أمره صلى الله عليه وسلم باجتماعهم عند النزول في سفر: عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال: «كان الناس إذا نزلوا منزلا تفرقوا في الشعاب والأودية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن تفرّقكم في هذه الشعاب والأودية إنما ذلكم من الشيطان». فلم ينزل بعد ذلك منزلاً إلا انضم بعضهم إلى بعض حتى يقال: «لو بُسط عليهم ثوب لعمهم». [صحيح سنن أبي داود رقم ٢٢٨٨، ٤٩٨/٢].

ثالثًا: إكفاء الصحابة القدور وهي تفور باللحم عند استماعهم النداء بتحريم لحوم الحمر الأهلية:

روى البخاري عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءَهُ جَاءٍ فَقَالَ: أُكِلَتْ الْحُمُرُ، فَسَكَتَ، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ فَقَالَ: أُكِلَتْ الْحُمُرُ، فَسَكَتَ ثُمَّ أَتَاهُ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: أُفْنِيَتْ الْحُمُرُ، فَأَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى فِي النَّاسِ: إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَنْهَيَانِكُمْ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ، فَأُكْفِئَتْ الْقُدُورُ وَإِنَّهَا لَتَفُورُ بِاللَّحْمِ. [صحيح البخاري: ٤١٩٩، ٤٦٧/٧- ٤٦٨].

فلم يفكر أولئك الأبرار - المحبون الصادقون للحبيب صلى الله عليه وسلم في التحايل أو البحث عن فرصة أو استثناء.

رابعًا: جري الخمر في سكك المدينة فور تحريمها:

لم يكن ابتغاء أولئك الأبرار المحبين الصادقين للحبيب الكريم صلى الله عليه وسلم عند النهي عما رغبوا فيه فحسب، بل تركوا أشياء كانوا تعودوا عليها منذ سنوات، بل ورثوها عن آبائهم.

روى البخاري عن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ الْخَمْرَ الَّتِي أُهْرِيقَتْ الْفَضِيخُ، وَزَادَنِي مُحَمَّدٌ الْبِيكَنْدِيُّ عَنْ أَبِي النُّعْمَانِ قَالَ: كُنْتُ سَاقِيَ الْقَوْمِ فِي مَنْزِلِ أَبِي طَلْحَةَ فَنَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ، فَأَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: اخْرُجْ فَانْظُرْ مَا هَذَا الصَّوْتُ. قَالَ: فَخَرَجْتُ، فَقُلْتُ هَذَا مُنَادٍ يُنَادِي أَلَا إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ، فَقَالَ لِي: اذْهَبْ فَأَهْرِقْهَا، قَالَ: فَجَرَتْ فِي سِكَكِ الْمَدِينَةِ. [البخاري: ٢٤٦٤، ١١٢/٥].

سبحان الله، وتم هذا كله من غير تردد ولا استفسار، يا له من استسلام مطلق، وانقياد كامل، كما قال الله تعالى: «إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» [النور: ٥١].

خامسًا: مبادرة الصحابة إلى خلع نعالهم في الصلاة حينما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم خلع نعليه:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يُصلي بأصحابه، إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره، فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم». فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته قال: «ما حملكم على إلقائكم نعالكم؟».

قالوا: «رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا».

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ جبريل صلى الله عليه وسلم أتاني فأخبرني أنَّ فيهما قذرًا». وقال: «إذا جاء أحدكم إلى المسجد فلينظر، فإن رأى في نعليه قذرًا أو أذى فليمسحه، وليصل فيهما». [صحيح سنن أبي داود: ٦٠٥، ١٢٨/١].

الله أكبر، كم كانوا حريصين على المبادرة على التأسي به صلى الله عليه وسلم.

سادسًا: خلع المرأة سواريها عند استماع تهديد النبي صلى الله عليه وسلم:

لم تكن سرعة الاستجابة لله ورسوله من قبل الرجال فحسب، بل كانت كذلك من المؤمنات الصادقات.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «إن امرأة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعها ابنة لها، وفي يد ابنتها مسكتان [تثنية مسكة وهي السوار] غليظتان من ذهب، فقال: أتعطين زكاة هذا؟ قالت: لا. قال: أيسرك أن يسوِّرك الله بهما يوم القيامة سوارين من نار؟» قال: فخلعتهما

فألقتهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالت: هما لله عز وجل ولرسوله. [صحيح سنن أبي داود: ١٣٨٢، ١/٢٩١].

الله أكبر، لم تقتصر المرأة المؤمنة المحبّة للرسول الله صلى الله عليه وسلم على امتثال أمره بدفع زكاة السوارين، بل تنازلت عنهما وقدمتهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة لله عز وجل.

سابعاً: عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «يرحم الله نساء المؤمنات الأول، لما أنزل الله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، قمن إلى مرطهن فشققنها ثم اختمرن بها». [البخاري: ٨/٤٨٩/٤٧٥٨]. هكذا استجابة المسلمات لأمر الله تعالى.

ثامناً: التصاق النساء بالجدار تنفيذاً لأمره صلى الله عليه وسلم بالمشي في حافات الطريق:

عن أبي سعيد الأنصاري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو خارج من المسجد، فاختلط رجال مع النساء في الطريق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «استأخرن فإنه ليس لكنَّ أن تَحققن الطريق». يعني: تَركبن حقها وهو وسطها. «عليكنّ بحافات الطريق». فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتى إنَّ ثوبها يتعلّق بالجدار من لصوقها. [صحيح سنن أبي داود رقم (٤٣٩٢، ٣/٩٨٩)].

تاسعاً: عفو الصديق رضي الله عنه عند مسطح بن أثاثة:

كان فيمن خاض في حادثة الإفك مسطح بن إثاثة، وكانت أمه ابنة خالة الصديق رضي الله عنه، وكان مسطح رجلاً فقيرًا، وكان الصديق ينفق عليه، فلما قال ما قال في أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ونزلت الآيات ببراءتها، قال أبو بكر: «والله لا أعود أنفق على مسطح أبدًا بعدما قال ما قال». فنزل القرآن: «﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾» [النور: ٢٢]. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر فتلاها عليه، فوالله ما هو أن سمعها حتى قال: «بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، والله لأردّن على مسطح ما كنت قطعته عنه». [متفق عليه].

عاشراً: سرعة استجابة أبي طلحة رضي الله عنه لأمر الله تعالى:

عن أنس رضي الله عنه قال: «كان أبو طلحة رضي الله عنه أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فقال أنس: فلما نزلت هذه الآية: «﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾» [آل عمران: ٩٢]. جاء أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إن الله تعالى أنزل إليك: «﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾» [آل عمران: ٩٢]، وإن أحب مالي إليَّ بيرحاء، وإنها صدقة لله تعالى أرجو برها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بخ بخ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين». فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه. [متفق عليه: البخاري: ١٤٦١/٣٢٥/٣، ومسلم: ٩٩٨/٦٩٣/٢].

فانظروا رحمكم الله: كيف استجاب أبو طلحة رضي الله عنه لأمر الله بالإنفاق، وبادر إلى الخروج من أحب أمواله إليه صدقة لله تعالى، ثمَّ لما أمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجعلها في أقاربه لم يسعه أيضا إلا السمع والطاعة، فقام فقسمها في أقاربه وبني عمه.

والسؤال كما كان الصحابة والصحابيات رضي الله عنهم؟ أليس في الإمكان أن يعود المسلمون اليوم عودة حميدة إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم؟ هل يعود للمسلمين عزُّهم ومجدهم؟

والجواب: نعم، إذا رجعوا إلى دينهم، وتمسكوا بهدي نبيهم صلى الله عليه وسلم، كما كان سلفنا الصالح رضوان الله عليهم، كانوا يعظّمون شعائر الله، ويعظّمون حرمات الله، وكانوا يعلمون أنه يجب عليهم سرعة التنفيذ لكل ما يأتيهم من عند الله، فإن أتاهم أمر فعلوه، وإن أتاهم نهي انتهوا؛ لأنهم علموا أنهم ليس لهم الخيرة من أمرهم إذا قضى الله ورسوله أمرًا، هكذا كان منهجهم في التلقي.

وفقني الله وإياكم للتأسي بهم.